مؤسسة القدس الدّولية
al Quds International Institution (QII)
www.alquds-online.org

شذرات من الحركة العلمية
في مدينة القدس
إبان العصور الإسلامية

إعداد: علي إبراهيم
قسم الأبحاث والمعلومات
مؤسسة القدس الدولية

شذرات من الحركة العلمية
في مدينة القدس
إبان العصور الإسلامية

إعداد
علي إبراهيم

إصدار
قسم الأبحاث والمعلومات
مؤسسة القدس الدولية
تشرين ثانٍ/ نوفمبر 2019

المحتويات

مقدمة

ليس بوسع راصد الحركة العلمية في البلاد الإسلامية إلا أن يقف طويلًا أمام دور القدس ومكانتها في هذه الحركة، وأن يسلط الضوء على موقعها الرئيس كواحدةٍ من منارات الحضارة والعلوم، فقد شكلت القدس واحدةً من أبرز المدن التي تُضرب إليها أكباد الإبل لطلب العلم والتلقي عن الشيوخ والعلماء، وساهمت بشكلٍ حثيث في إذكاء الحركة العلمية مع تتابع العصور الإسلامية المتلاحقة، وتأتي هذه المكانة نتيجة أهميتها الدينيّة، وموقعها المبارك، وأهمية مسجدها الأقصى، الذي كان محجًا للعلماء والصالحين، للاعتكاف والعبادة والتعلم والتعليم.

وفي سياق تسليط الضوء على أهمية القدس في الحركة العلمية، نقدم في هذه الورقة إطلالةً يسيرة على التفاعل العلمي والمعرفي فيها، وهو تفاعلٌ ثريّ يتلاقى مع أهمية المدينة في الإسلام، وموقعها المحوري في قلب بلاد الشام، ما جعل الرحلة إليها والمكوث فيها، جزءًا من الرحلات العلمية التي كانت واحدةً من أبرز مظاهر طلب العلم في الحقب الإسلامية المتلاحقة، إذ زارها العديد من كبار علماء المسلمين من أصقاع الأرض، وتخرج في مسجدها الأقصى نخبة من العلماء في مختلف العلوم الشرعية والطبيعية.

وقد تضافرت في هذه المدينة عوامل عديدة أدت إلى تنشيط الحركة العلمية فيها، منها تحبيب النبي ﷺ لصحابته بزيارة القدس والإقامة فيها، ما جعلها سنين طويلة مقصدًا لطلاب العلم الذين أتوا لطلب الحديث من الكثير من الصحابة، ما أدى إلى تحويل المسجد الأقصى منذ العصر الإسلامي الأول إلى واحدٍ من أهم المحافل العلمية في العالم الإسلامي، وهو دورٌ تطور مع تزايد الاهتمام بالمدينة، وتطور الحراك العلمي في المدن الإسلامية.

وحول دور المدينة ودقة وصفها، فليس هناك أدق وأجمل وأجود من الوصف الذي أورده العلامة الجغرافي شمس الدين المقدسي (ت 380هـ/990م) في كتابه الموسوعي «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» حيث قال: «ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب

من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها... وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كلّ لبيب، ولا تخلو كل يومٍ من غريب»[1]. ويُشير هذا النص الذي كُتب أواسط القرن الرابع الهجري، إلى الرفعة الحضارية التي كانت تتمتع بها المدينة، حيث اكتسبت مزايا ما تحصلت لغيرها، ويُشير المصدر نفسه، إلى رد أحد العلماء على المقدسي بأن وصفه لا يكون إلا للجنة، فقد كانت القدس جنة حقيقيّة ودرة قلّ نظيرها.

ومن شواهد اهتمام المقدسيين بالعلوم، ما أورده العلامة الأندلسي محمد بن عبد الله بن ابن العربي (ت 543 هـ/ 1148م)، إذ تحدث عن ثورة ضد واليها في ذلك الزمن، وعلى الرغم من هذه الثورة لم تتعطل أسواق القدس، ولم يتوقف التدريس في المسجد الأقصى، ولم تنقطع مجالس المناظرة، ويقارن بين ما عاين في القدس وبين بلاده في الأندلس، معلقًا أن مثل هذه الأحداث لو جرت في بلاده، لتوقفت مفاصل الحياة، وتوقفت معايش الناس، فيقول:

«ورَأَيْت فِيه غَرِيبةَ الدَّهر، وذَلِك أنَّ ثائرًا ثار به على والِيه، وامْتَنَع فِيه بِالقُوت، فحَاصَرَه، وحَاوَلَ قِتاله بِالنُّشَّابِ مدَّة، والبَلَدُ على صِغَرِه مُسْتَمِرٌّ على حَالِه، ما أُغْلِقَتْ لِهَذِه الفِتْنَة سُوقٌ، ولا سَارَ إلِيْها مِن العَامَّةِ بَشَرٌ، ولا بَرَزَ لِلحَالِ مِن المَسْجِدِ الأَقْصَى مُعْتَكِفٌ، ولا انْقَطَعَتْ مُناظَرةٌ، ولا بَطَل التَّدْرِيسُ، وإنَّما كَانَت العَسْكَرِيَّةُ قَد تَفَرَّقَتْ فِرْقَتَيْنِ يَقْتَتِلُون، ولَيْس عِنْدَ سائِرِ النَّاسِ لِذَلِك حَرَكَةٌ، ولو كَانَ بَعْضُ هذا في بِلادِنا لاضْطَرَمَت نارُ الحَرْبِ في البَعِيدِ والقَرِيبِ، ولانْقَطَعَت المَعَايِشُ، وغُلِّقَت الدَّكَاكِينُ، وبَطَلَ التَّعامُلُ لِكَثْرةِ فُضولِنا وقِلَّةِ فُضولِهِمْ“[2].

وتُشير هذه الرواية إلى تجذر الرقي الحضاري في المدينة، فما تأثرت الحركة العلمية والمعرفية فيها بالتغييرات السياسية والاضطرابات العسكرية التي جرت فيها، ولو كان اضطرابًا ينقسم فيه الجند ويستدعي زعزعة الأمن في المدينة، بل بقيت على ما فيها من تدريس ومناظرة وغيرها، وتُفيد المصادر إلى أن رحلة ابن العربي إلى القدس لم تكن زيارةً عابرة قط، بل بقي فيها ثلاث سنوات يتلقى العلم عن علماء المدينة ومن يأتيها زائرًا منهم، ونجد في تراجم كثيرٍ من العلماء

1 شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 145.
2 محمد بن عبد الله بن ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، دار الفكر، بيروت، مجلد 4 ص 6.
وانظر: وائل معوض، ابن العربي: القاضي الفقيه والرحالة الأديب، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yxqoy6ze

والأعلام في الحقب السياسية المختلفة ثبتٌ بزيارتهم المدينة متعلمين أو معلّمين، إضافةً إلى تحول المدينة إلى نقطة جذب أساسية ونقطة التقاء بين المشرق والمغرب الإسلاميين، إذ كانت المدينة محطة رئيسةً على طريق المغاربة والأندلسيين إلى الحج وزيارة بلاد المشرق الإسلامي.

وفي هذه المادة شذرات من الاهتمام المقدسي بالعلوم الشرعية والطبيعيّة، وقبساتٍ متفرقة عن أبرز العلماء الذين نبغوا في المدينة، على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم العملية، ما يُعيد لنا التأكيد أن المعركة على هوية القدس واحدةٌ من أهم المعارك، فالمدينة التي كانت واحدةً من حواضر العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، تم تقزيم دورها ومن ثم محاولة إنهائه بفعل الاحتلال الإسرائيلي الغاشم، الذي يخنق المدينة وما تمتلكه من مقدرات بشرية وسكانية، ولنؤكد مجددًا أن الدور الحضاري للمدينة يُمكن استعادته إن تضافرت العوامل اللازمة والجهات الراعية، لإعادة القدس إلى سابق عهدها من الأهمية والألق، وأن الإشعاع الحضاري للمدينة هو جزء من هويتها العربية الإسلامية، الحفاظ عليه حفاظٌ عليها.

القسم الأول: الاهتمام بالعلوم الشرعية

• إبان عصر الصحابة والتابعين

بدأت أهمية «بيت المقدس» بالتجلي منذ العصر الإسلاميّ الأول، حيث قصدها العديد من صحابة رسول الله ﷺ لتعليم الناس أو التعلّم، أو قصد المكوث فيها للعبادة في مسجدها، وتُشير الروايات إلى أنّ عددًا كبيرًا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أقاموا في المدينة، ففي الحديث المرفوع عن يَعْلَى بْنِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: (شَهِدْتُ مَعَ مُعَاوِيَةَ بَيْتَ المَقدِسِ فَجَمَّعَ بِنَا فَنَظَرْتُ، فَإِذَا جُلُّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ، أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ)[1]. وتصف هذه الرواية حال

1 سنن أبي داود، رقم 939.

القدس بعد الفتح العمري للمدينة، وأن جُلّ من يحضر صلاة الجمعة في المسجد الأقصى المبارك من الصحابة رضي الله عليهم، وهي دلالةٌ على أهمية المدينة ومكانتها، وتحولها إلى نقطة جذبٍ مركزية، جذبت إليها الجيل الأبرز في تلك الحقبة الزمنية وهم الصحابة رضي الله عنهم، الذين أطلقوا وقادوا الحركة العلمية والمعرفية في أرجاء البلاد الإسلامية عامةً وفي القدس على وجه الخصوص، فكانت المدينة تعج بالكثير منهم.

وقد زار القدس العديد من الصحابة في أثناء الفتوح الإسلامية لبلاد الشام وبُعيد الفتح العمري للمدينة، ومنهم أبو عبيدة بن الجراح ﵁ (ت 18هـ/639 م) وخالد بن الوليد ﵁ (ت 21 هـ/642 م)، ومعاذ بن جبل ﵁ (ت 18هـ/639 م) الذي كان يتعبد أيامًا وليالي في المسجد الأقصى، وبلال بن رباح ﵁ (ت 20هـ) وهو أول من أذّن في المسجد الأقصى بعد الفتح العمري للمدينة، ومعاوية بن أبي سفيان ﵁ (ت 60 هـ/680 م)، وعبد الرحمن بن صخر أبو هريرة ﵁ (ت 59 هـ/678 م)، وعوف بن مالك الأشجعي ﵁ (ت 73 هـ) وغيرهم الكثير، ومن التابعين أويس القرني (ت 37 هـ/658 م) وعبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت 78 هـ)[1]. وفي عصر الصحابة الكرام تحوّل المسجد الأقصى إلى منارة معرفية وعلمية، فبعد تحديد عمر بن الخطاب ﵁ (ت هـ/644م) مكان المسجد، ومباشرة بناء المسجد القبلي في موقعه اليوم، عيّن من يعلّم الناس القرآن في رحاب الأقصى، وأول من تولى هذه المهمة في القدس هو معاذ بن جبل ﵁، ومن بعده عبادة بن الصامت ﵁ (ت 34هـ/654م)[2].

ومن أبرز الصحابة الذين ساهموا في نشر العلم انطلاقًا من المسجد الأقصى المبارك، إلى جانب عبادة بن الصامت ﵁، الصحابي شداد بن أوس الأنصاري ﵁ (ت 58هـ/677م)، وقد لزم شداد المسجد الأقصى منذ قدومه إلى بيت المقدس، ونشر العلم في رحابه، ومما يدلل على سعة علمه ودوره في نشر الفقه في فلسطين ما قاله عويمر بن مالك أبو الدرداء ﵁ (ت

1 عامر جاد الله أبو حسنة، الحركة العلمية في القدس من الفتح الإسلامي 15هـ حتى 132 هـ، مجلة حوليات آداب عين شمس، ص 288.
2 المرجع نفسه، ص 289.

32 هـ/652م): «لكل أمة فقيه، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس»[1]. ويُعدّ شداد ﷺ من الصحابة الذين روى عنهم أهل الشام حديث رسول الله ﷺ.[2]

وممن درس على يد الصحابيين معاذ وعبادة رضي الله عنهما وغيرهما من علماء الصحابة عبد الرحمن بن غنم الأشعري، الذي يُعدّ شيخ فلسطين في تلك الحقبة، وأصبح من فقهاء القدس وفلسطين فيما بعد، وتتلمذ على يديه الكثير من التابعين في بلاد الشام عامةً وفي دمشق على وجه الخصوص[3]، ومنذ تلك الحقبة بدأت الحياة الفكرية في فلسطين بالازدهار خاصة بعد إقامة العديد من الصحابة في مدنها، فانتشر فيها القرّاء والمحدثون والفقهاء.

● إبان العصرين الأموي والعباسي

وبعد عصر الصحابة، ترسّخ دور المسجد الأقصى العلمي والمعرفي، وقد رعى هذا النشاط خلفاء بني أمية، فقد أوردت المصادر أن عبد الملك بن مروان (ت86 هـ/ 705م) كان يحرص على اللقاء بأم الدرداء رضي الله عنها في القدس (ت 81هـ)، وكانت واحدةً من عالمات بلاد الشام المبرزات، ويجلس معها قرب الصخرة في الأقصى[4]. وإلى جانب أم الدرداء درّس في الأقصى في العصر الأموي كلٌّ من رجاء بن حيوة (ت 112هـ) ، وعطاء بن أبي مسلم (135 هـ/ 752م) ، والوليد بن عبد الرحمن الجرشي، وغيرهم الكثير[5].

وشكل تعليم القرآن أو ما يُعرف بالإقراء واحدًا من أبرز العلوم الشرعية التي يتم تدريسها في المسجد الأقصى، ومن أبرز القراء في القدس نذكر خالد بن معدان (ت 104هـ/722 م)، وإبراهيم بن أبي عبلة المقدسي (ت 152 هـ/769م) وهو أحد الثقات من التابعين، أخذ القراءة عن أم الدرداء رضي الله عنها[6]. ولما للمسجد الأقصى من أهمية دينية كان

1 الموسوعة الفلسطينية، شداد بن أوس (17 ق.هـ – 58هـ) (605-677م)، https://tinyurl.com/y2l9x7zw
2 عامر جاد الله أبو حسنة، مرجع سابق، ص 289.
3 موقع تراجم: صحابة رسول الله، https://tinyurl.com/y47qsjvm
4 سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، بحث جامعي، جامعة أم القرى، ص 16.
5 سمية الوافي، مرجع سابق، ص 71
6 عامر جاد الله أبو حسنة، مرجع سابق، ص 290.

كبار العلماء يقصدون المسجد للتعبد فيه، وهو ما يرفع من حجم التلاقي الثقافي في جنبات المدينة والمسجد، ولعل أبرزهم الإمام سفيان الثوري (ت 161هـ/777م) الذي كان يختم القرآن في المسجد الأقصى[1].

وفي سياق زيارة العلماء وطلبة العلم إلى القدس والأقصى، زار المسجد عددٌ كبيرٌ من كبار العلماء الأعلام، من بينهم الأئمة الأوزاعي (ت 157هـ/ 774م) والثوري والليث بن سعد (ت 175هـ/ 791م) ومحمد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ/ 820م) والقاضي بن العربي (ت 453هـ/1148م) رحمهم الله، وبزغ من القدس علماء مبرزون في مختلف العلوم الإسلامية، من بينهم محمد بن أحمد المقدسي البشاري (ت 380هـ/990م) مؤلف «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ومن العلماء الذين استقطبتهم المدينة الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/ 1111م) الذي اعتكف في المسجد الأقصى وقدم إلى المدرسة النصرية وألّف فيها – أو فوق مصلى باب الرحمة- كتابه الشهير «إحياء علوم الدين»، أو بعض أجزائه حسب المصادر المختلفة[2].

● العصرين الأيوبي والمملوكي

ومع الاحتلال الصليبي للمدينة، سقط في احتلالها العديد من علماء القدس من بينهم أبو القاسم مكي عبد السلام المقدسي[3]، وذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ أن الصليبيين عند احتلالهم المدينة قتلوا في جملة من قتلوا «جماعاتٍ كثيرة من الأئمة والعلماء، والعباد، والزهاد، الذين فارقوا أوطانهم، وجاوروا ذلك الموضع الشريف عند المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة»[4].

---

1 الموسوعة الفقهية (الكويتية)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت، 1997، ج 37، ص 234.
2 مجلة ميم، 2017/9/12، https://tinyurl.com/yygegknf
3 صبيح النابلسي، القضاء والمراكز العلمية في القدس خلال القرون الستة الأولى من الهجرة، اتحاد المؤرخين العرب - معهد التاريخ العربي، بغداد، 2001، ص 271.
4 علي ابن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 9، ص 19.

وبعد تحرير صلاح الدين الأيوبي (ت 589 هـ/1193م) للمدينة في 27 رجب 583 هـ الموافق 2 تشرين أول/أكتوبر 1187م[1]، عاد المسجد الأقصى إلى سابق عهده وأهميته بعد انقطاع دام طوال الاحتلال الصليبي، وتولى جانبًا من النهضة العلمية فيه كل من القاضي الفاضل والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، وشهدت القدس نهضة علمية مميزة، وتطور التعليم في الأقصى خاصة وفي القدس عامة مع إنشاء العديد من المدارس الوقفية، في العهود اللاحقة الأيوبية والمملوكية، وارتفع عدد المدرّسين والطلبة والفقهاء والعلماء المشتغلين فيها، وأُجريت على هذه المدارس الأوقاف والعطايا من السلاطين والحكام، وتحوّلت باحات الأقصى وأروقته ومصاطبه إلى جامعة حافلة، تشهد عشرات الحلق العلمية في التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، وغيرها من العلوم المتداولة حينها[2]. وفي عهد صلاح الدين الأيوبي كان في القدس أكثر من سبعين مدرسة، إضافة إلى عشرات الزوايا والخوانق[3].

ومن أبرز علماء القدس عائلة ابن قدامة المقدسي (ت 620 هـ/ 1223م) صاحب «المغني»، وقد نزحت واستقرت العائلة في مدينة دمشق بعد الاحتلال الصليبي للقدس[4]، وقد وصف ابن قدامة أنه «شيخ الإسلام، كان إمامًا حجة مصنفًا، محررًا، متفننًا متبحرًا في العلوم»[5]، والضياء المقدسي (ت 643هـ/ 1245م)، وبرز أبو المعالي الكمال بن أبي شريف (ت 906هـ/1501م)، كان من علماء القدس عني بالإشراف على الخانقاه الصلاحية بالقدس، فعمل على عمارة الخانقاه وإصلاح ما اختل من نظامها[6]، إضافةً إلى مئات العلماء الآخرين.

ومع هذه النهضة العملية الكبيرة نجد أن العديد من كبار علماء العالم الإسلامي رووا عن علماء القدس وتتلمذوا على أيديهم، من بينهم الأئمة الذهبي والسبكي والسروجي

1 أبو شامة شهاب الدين، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997، ج3، ص 331.
2 مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، 2014/1/29. https://tinyurl.com/yyulnkx6
3 ناهدة الكسواني ونجية الحمود، الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن عشر، كانون ثانٍ 2010، ص 5.
4 مجلة ميم، مرجع سابق.
5 صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، نسخة إلكترونية لا توافق المطبوع، https://tinyurl.com/yxsmh4ux
6 مؤسسة القدس للثقافة والتراث، https://tinyurl.com/y6couf59

والحسني والعراقي وابن ظهيرة وابن جماعة، وابن حجر العسقلاني وابن عساكر وغيرهم[1]. ومما يدلل على تبحر المقادسة في العلوم الشرعية ونبوغ عالمات في هذا المجتمع، أن الإمام ابن حجر العسقلاني سمع من الشيخة فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية 58 كتابًا وجزءًا[2].

ومع ما عانته المدينة من الاحتلال الصليبي، شهدت المدينة في أثناء العهدين الأيوبي والمملوكي، حركةً علمية مبهرة، يمكن أن نسلط الضوء على واحدة من تجلياتها وهي الكتب التي عنيت بفضائل القدس والأقصى إبّان هذين العهدين، وهو ما شجع المزيد من العلماء وطلبة العلم على القدوم إلى القدس والإقامة بها، والعمل على تعزيز هذه النهضة العلمية المميزة[3].

وتظهر أهمية المدينة العلمية في عدد المدارس التي أقيمت في تلك المرحلة، فمن بينها المدرسة النصرية (450هـ/1058م)، والمدرسة الختنية (587هـ/1911م)، والمدرسة الصلاحية (588هـ/1192م)، والمدرسة الأفضلية (نحو 590هـ/1193م)، والمدرسة الميمونية (593هـ/6911م)، والمدرسة النحوية (604هـ/1207م)، ومدرسة الحديث الهكارية (696هـ/1296م)، والمدرسة الطشتمرية (784هـ/1382م)، والمدرسة الجاولية (707هـ/1207م)، وغيرها[4].

وإضافة إلى المدارس، برزت الخوانق والزوايا كواحدة من المؤسسات الدينية التي يتلقى فيها الطلاب العلوم الشرعية، وخلال العهدين الأيوبي والمملوكي تم تأسيس عددٍ منها، من بينها، الخانقاه الصلاحية (583 هـ/1187م) التي أصبحت مستقر طلاب الفقه من المدرسة الصلاحية، والزاوية المحمدية (751هـ/1350م)، وغيرها[5]. ومن الرُّبط أنشئ في هذه المرحلة رباط البصير (666هـ/1267م)، والرباط المنصوري (681هـ/1282م)، ورباط الكُرد (693هـ/2931م) ورباط المارديني (763هـ/1361م)[6].

1 مجلة عالم الفكر، مرجع سابق، ص 14.
2 المرجع نفسه.
3 محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة الكويت 1985، المنظمة العربية للتربية والعلوم، ص 137.
4 سوسن الفاخري، أثر الوقف في ازدهار الحياة العلمية والثقافية في القدس، ص 5-11.
5 المرجع نفسه، ص 12-13.
6 عماد عبد السلام رؤوف، علماء بيت المقدس في القرن الحادي عشر الهجري (17م)، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yxq43rsh

وفي عهد المماليك ازدهر التأليف بشكلٍ كبير، خاصة في الفقه والتراجم، وظهر في عهدهم كثيرٌ من العلماء والأدباء والفقهاء والمؤرخين. وشهدت القدس حركة عمرانية نشطة، استهدفت المسجد الأقصى المبارك، وما حوله مما يُعرف اليوم بالبلدة القديمة، فبنيت المدارس والتكايا والزوايا والمنازل والحمامات والخانات التي لا تزال آثارها باقيةً حتى اليوم[1].

● إبان عهد الدولة العثمانية

ومع دخول القدس تحت حكم الدولة العثمانية، لم تقم الدولة بتغييرات كبيرة في واقع الحركة العلمية في المدينة، نتيجة العدد الكبير من المدارس آنفة الذكر، وساهم المجتمع المقدسي والدولة في الحفاظ على هذه المدارس وخدمتها وتطويرها، عبر الحفاظ على أوقاف هذه المدارس المنتشرة في نواحي المدن والقرى الفلسطينية، أو في المناطق الشامية الأخرى[2]. وفي القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر هجري) ينقل بعض الرحالة أن عدد حجرات المدارس الواقعة حول المسجد الأقصى المبارك بلغ نحو مئتي حجرة تدريس، وبلغ عدد المدارس والزوايا في القدس نحو 360 مدرسة وزاوية، وظلت أسماء المدارس الشهيرة كالصلاحية والنحوية والتنكرية وغيرها كما هي[3].

وعلى الرغم من استمرار نشاط المدارس في العهد العثماني كما كان أيام المماليك، شهدت القدس في ظلّ حكم الدولة العثمانية انتشار المكتبات، وقد كانت على نوعين مكتبات عامة، وأخرى خاصة. وتُشير المصادر إلى أن المدينة كانت تضم نحو خمسين مكتبة عامة، تحتوي على آلاف الكتب، أهمها مكتبة المسجد الأقصى المبارك، والمكتبات الخاصة بالمدارس، ومكتبات الأديرة، وكانت مكتبة المسجد الأقصى من أهم دور الكتب في القدس، إذ كانت تحتوي على أعدادٍ كبيرة من الكتب في مختلف العلوم والموضوعات،

---

1 الموسوعة الفلسطينية، المماليك، https://tinyurl.com/yy9vjekn
2 عماد عبد السلام رؤوف، موقع الألوكة مرجع سابق.
3 عارف العارف، تاريخ القدس، ط 2 دار المعارف، ص 101-105.

من اللغة والحساب والتاريخ وغيرها، وبقي الاهتمام بالمكتبات حتى بدايات القرن العشرين، ففي حولية لنظارة المعارف العثمانية أن «في بيت القدس مكتبة تدعى المكتبة الخالدية في حي السلسلة أنشئت عام 1317هـ/1900م جمعت 1318 كتابًا أقامتها والدة الحاج راغب الخالدي»[1].

وعلى غرار المكتبات العامة، امتلك الكثير من علماء القدس وأعيانها مكتبات كبيرة، وكان لبعض العائلات المقدسية مكتبات مميزة، تضم المئات من الكتب في مختلف المجالات والعلوم، ومن بينها مكتبة عبد الحي جار الله، ومكتبة الشيخ سليمان أفندي المدرس ومكتبة فتحي صالح أفندي ومكتبة حسين أفندي، ومكتبة آل البديري ومكتبة آل قطينة وسواها، التي كانت تضم آلاف الكتب ومئات المخطوطات النادرة[2].

القسم الثاني: الاهتمام بالعلوم الطبيعية

لم يكن الاهتمام العلمي في مدينة القدس في العصور الإسلامية منحصرًا بالعلوم الشرعية من فقه وحديث وتفسير وغيرها فقط، بل شهدت مدينة القدس اهتمامًا مبكرًا بالعلوم الطبيعيّة والتجريبيّة، إذ نبغ من المدينة عددٌ من العلماء الذين تركوا بصمة نوعية في العلوم التي تخصصوا فيها.

ويعدّ الطب واحدًا من العلوم المبرزة في القدس في العصور الإسلامية، وقد ازدهر ازدهارًا كبيرًا خلال القرن الرابع الهجري على يد العلامة محمّد بن أحمد بن سعيد الحكيم التميمي المقدسي التُرياقي (ت 390هـ/1000م)، وهو طبيبٌ وصيدليّ وعالم بأنواع النبات وفوائدها، ولُقب بالترياقي لبراعته بتركيب الأدوية والمعاجين، حتى أصبح أبرز الأطباء في بلاد الشام، ومقصدًا للطلاب[3]، ومما يُظهر انتشار علوم الطب في بيت المقدس عدد الأطباء الذين أخذ عنهم الترياقي العلم، ومن بينهم الحسن بن محمد بن أبي نعيم، وهو من أبرز مشايخ الترياقي وعنه

1 محمد أحمد، الحياة الثقافية والفكرية في القدس في العصر العثماني، منشورات جامعة دمشق. https://tinyurl.com/y3xf6ng6
2 المرجع نفسه.
3 مؤسسة القدس للثقافة والتراث، من تاريخ الطب والصيدلة في المدينة المقدسة، http://tinyurl.com/y3ks4kwe

أخذ علوم الطب[1]، إضافة إلى والد الترياقي أحمد بن سعيد وجده سعيد التميمي المقدسي، وغيرهم[2]. تعدد من أخذ عنهم الترياقي يُشير إلى انتشار المتخصصين في علوم الطب في مدينة القدس، وعلى أهمية المدينة في هذا الميدان العلمي، إضافة إلى غنى الطبيعة المحيطة بالمدينة وفي بلاد الشام عامة، من حيث النباتات والأزهار وما يتصل باستخداماتها الطبيّة والعلاجية.

وبما يتصل بالطبيب التميمي، وما يدلل على درجة براعته بعلوم الطب والصيدلة، دخوله في خدمه بعض ولاة الإخشيديين في فلسطين، ومع دخول الفاطميين إلى مصر، تم استدعاء الترياقي إليها، وصنع الأدوية والأشربة لكل من المعز والعزيز من خلفاء الفاطميين[3]، وإلى جانب جهوده الكبيرة في ممارسة الطب ومعالجة الناس، ترك التميمي العديد من المؤلفات بعضها حول الطب والصيدلة، وبعضها عن صناعة الأدوية وذكر دواعي استخدامها وغيرها، إضافة إلى كتاب تناول فيه تلوث الهواء وما يتصل بموضوع الملوثات، ما يجعل التميمي أحد رواد «حماية البيئة» ومنظريها[4]، وهو ما يُظهر التقدم العلمي والدرجة التي وصل إليها التميمي من التخصص في هذه المجالات، وتناول موضوعات ذات صلة بحياة الناس، حيث تناول أنواع العلاج النفسي مستخدمًا الموسيقى والألحان وغيرها.

ومن الأطباء الذين قدموا إلى القدس بعد تحريرها من الصليبين، رشيد الدين الصوري (ت 604 هـ/1177م)، وهو من أبرز الأطباء في القدس في العصر الأيوبي، وقد تلقى الصوري عن الشيخ أبو العباس النباتي علوم النباتات وخصائص النباتات الطبية في القدس، وعمل في البيمارستان الذي أنشأه السلطان الناصر صلاح الدين[5]، ومن ثم أصبح طبيب السلاطين الأيوبيين، وطبب كلًا من الملك العادل أبو بكر، والملك المعظم عيسى والملك الناصر

1 جمال الدين أبي الحسن القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص 130.
2 مؤسسة القدس للثقافة والتراث، مرجع سابق.
3 محمد فؤاد الذاكري، الطب والأطباء في القدس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2009، ص15-16.
4 محمد فؤاد الذاكري، مرجع سابق، ص 18.
5 د. عبد الله حجازي، من مشاهير علماء الصيدلة المسلمين ابن الصوري، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yy8aou3t

داود[1]. ومن أطباء القدس رشيد الدين بن يعقوب (ت 646هـ/1248م)، وعبد السلام بن أحمد المقدسي المعروف بابن غانم (ت 678هـ/1279م)، وغيرهم[2].

وفي سياق الاهتمام بعلوم الطب والصيدلية، يشكل الاهتمام بالمشافي انعكاسًا لحجم تطور هذه العلوم في المدينة، ومن أبرز البيمارستانات في القدس، بيمارستان الوليد بن عبد الملك، الذي أُلحق بدار الضيافة، وكان مفتوحًا للمرضى على اختلاف طبقاتهم. ومنها ما ذكره عددٌ من الرحالة عن البيمارستان الفاطمي في القدس (395هـ/1004م)[3]، وكان يقوم بتقديم العلاج والدواء للمرضى، وقد أوقف على المشفى أوقافٌ عظيمة، تُغطي حاجات المرضى، ورواتب الأطباء وغيرها[4]، وممن تولى الإشراف على هذا البيمارستان عبد الجليل بن عمر المقدسي المعروف بابن الخواتيمي الطبيب[5]، وقد بقي البيمارستان يعمل زهاء قرنٍ من الزمن حتى الاحتلال الصليبي للقدس عام 492 هـ/1099 م[6].

وبعد التحرير الصلاحي للقدس أمر السلطان صلاح الدين يوسف ببناء بيمارستان يُعالج فيه المرضى وجلب إليه نفائس الأدوية والعقاقير، وتم إنشاؤه عام 583هـ/1187م، وعُرف بالبيمارستان الصلاحي وأشرف على تشييده القاضي ابن شداد، وكان أول من أشرف على شؤونه يعقوب من صقلاب النصراني المقدسي الشرقي الملكي (ت 625ه/1228م)[7]، وأوقف صلاح الدين على البيمارستان عقارات عظيمة من بينها مخازن وبيوت وأفران ودكاكين وطواحين وآبار وأراضٍ زراعية من أجل تطويره والقيام بحاجاته[8]. وتُشير المصادر إلى تحول البيمارستان إلى جامعة طبية، يتلقى الطلاب فيها العلوم المتصلة بهذا الشأن، ويتلقى الطلاب تدريبًا عمليًا إضافة إلى التلقي النظري عن أساتذتهم.

1 المرجع نفسه، ص 40.
2 أطباء وبيمارستان القدس في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة القدس للثقافة والتراث، https://tinyurl.com/y5amdrln
3 عبد الحميد جمال الفراني، المؤسسات والمراكز العلمية في القدس 132 - 492 هـ، ص 213.
4 محمد فؤاد الذاكري، مرجع سابق، ص 82.
5 عبد الحميد جمال الفراني، مرجع سابق.
6 الموسوعة الفلسطينية، البيمارستانات، https://tinyurl.com/yybju7ps
7 المرجع نفسه.
8 مؤسسة القدس للثقافة والتراث، مرجع سابق.

وإلى جانب الطب شكلت الرياضيات وما يتصل بها من علوم، جزءًا أساسيًا من الحركة العلمية في القدس، ومن أبرز علماء القدس النابغين في الرياضيات العلامة أحمد بن محمد بن عماد (ت 815هـ/ 1412م)، الذي يُعرف بابن الهائم الحاسب، وهو إلى جانب كونه من كبار فقهاء الشافعية في زمانه، برع في علوم الرياضيات والفرائض، وابتكر نظرياتٍ جديدة في الحساب والجبر والمقابلة، ما زال العديد منها مستخدمًا في وقتنا الحاضر، وترك العديد من المصنفات في الرياضيات وعلوم الفرائض ومكث في القدس وتوفي فيها[1].

ومما يؤشر على الاهتمام الإسلامي المقدسي بعلوم الجبر، إدراج القائمين على المدرسة الصالحية متونًا علمية تُدرس للطلبة، منها كتاب شرح «الياسمينة» وكتاب «مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب» و«المعونة في الحساب»، وجميعها من تأليف العلامة ابن الهائم. ومما يتصل بهذه العلوم، كانت المواقيت من العلوم الأساسية لطلاب المدرسة الصلاحية، حيث يصبح الطلاب قادرين على معرفة منازل القمر ومواقع الظلال[2].

ومن العلوم التي نبغ فيها المقادسة علوم الرحلة والجغرافيا، وفي مقدمتهم شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري المعروف بالمقدسي، يعدُّ من أعظم الجغرافيين في الإسلام وفي العالم، يقول عنه المستشرق النمساوي ألويس اشبرنجر أنه «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»، ويقول «لم يسبقه شخصٌ في اتساع مجال أسفاره، وعمق ملاحظاته، وإخضاعه المادة التي جمعها لدراسة منظمة»، هذه شهادة واحدة من العديد من شهادات المستشرقين فيه، وهي تدلّ على درجة الإتقان التي بلغها المقدسيّ[3].

وترك المقدسي واحدةً من أهم الموسوعات الجغرافية في تلك المرحلة وهي كتاب «أحسن التقاسيم بمعرفة الأقاليم»، الذي يصف أحوال العالم الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري، ويذكر وصف الأمصار التي زارها المقدسي، وما يتصل بها من آلات وتجارات،

1 أحمد بن محمد بن عماد، الموسوعة الفلسطينية، https://tinyurl.com/y6s7so8g
محسن صالح (محرر)، دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، مركز الزيتونة، بيروت، ص 41 – 54.
2 رويدة أحمد، المدرسة الصلاحية في القدس، جامعة النجاح فلسطين، ص 91.
3 جاسر أبو صفية، علماء القدس وترقية الفكر الإنساني، مجلة عالم الفكر، العدد 4 المجلد 38، أبريل- يونيو 2010، ص 18.

إضافة إلى طعام السكان وشرابهم، والعناصر الطبيعية من جبال وسهول وغيرها، وهو ما يقدم معلومات واسعة عن هذه الأقاليم، إلى جانب اهتمام المقدسي بالعنصر السكاني البشري، ما يجعله رائدًا مبكرًا في هذا المجال[1].

خاتمة

لا تقف الريادة العلمية المقدسية على ما أوردناه في هذه المادة فقط، إذ يزخر تاريخ المدينة بنماذج عديدة رياديّة في مختلف المجالات والعلوم، فقد كانت القدس واحدةً من محاضر العلم والفكر والتأليف والتلقي، وشكلت طوال العصور الإسلامية المختلفة شعلة حضارية وفكرية متميزة، وما هذه الإطلالة والإضاءة على مكانة القدس الحضارية والفكرية والعلمية، إلا نماذج منتقاة، وإطلالة مقتضبة على تاريخ القدس الحضاري الهائل، في إطار إعادة التعلق بالمدينة المحتلة، إذ يجب ألا تقف العلاقة مع المدينة عند حدّ التعلق الوجداني فقط، بل يجب أن تبنى العلاقة مع القدس مع مختلف أدوارها الدينيّة والثقافيّة والفكرية، ما يعيد بناء علاقة العمل لها ولمختلف قضاياها.

إذًا، خسارة القدس بعد احتلالها هي خسارة فادحة، خسرت الأمة فيها عاملًا ركيزًا من عوامل النهضة والرفعة والتقدم، وواحدةً من المدن التي كانت –وستعود- تتمتع باستقطابٍ حضاري، جذب إليها العديد من العلماء والمفكرين من أصقاع الأرض، ويأتي نشر هذه الشذرات العلمية في سياق إبراز مكانة القدس والحض على العمل لأجلها والدفاع عنها، فالمعركة للقدس وعلى القدس معركة مفصلية تشمل الفكر والثقافة كما تشمل الأرض والمقدسات.

1 هشام علي، المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، جامعة القادسية، 2017، ص 8-13.

المصادر والمراجع:

الكتب

- أبو شامة شهاب الدين، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997، ج3، ص 331.
- جمال الدين أبي الحسن القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص 130.
- رويدة أحمد، المدرسة الصلاحية في القدس، جامعة النجاح فلسطين، ص 91.
- سمية الوافي، التعليم في الشام في العصر الأموي، بحث جامعي، جامعة أم القرى، ص 16.
- سوسن الفاخري، أثر الوقف في ازدهار الحياة العلمية والثقافية في القدس، ص 5-11.
- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 145.
- صبيح النابلسي، القضاء والمراكز العلمية في القدس خلال القرون الستة الأولى من الهجرة، اتحاد المؤرخين العرب - معهد التاريخ العربي، بغداد، 2001، ص 271.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، نسخة إلكترونية لا توافق المطبوع، https://tinyurl.com/yxsmh4ux
- عارف العارف، تاريخ القدس، ط 2 دار المعارف، ص 101-105.
- عبد الحميد جمال الفراني، المؤسسات والمراكز العلمية في القدس 132 - 492 ه، ص 213.
- علي ابن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 9، ص 19.

- محسن صالح (محرر)، دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، مركز الزيتونة، بيروت، ص 41 – 54.
- محمد أحمد، الحياة الثقافية والفكرية في القدس في العصر العثماني، منشورات جامعة دمشق https://tinyurl.com/y3xf6ng6
- محمد بن عبد الله بن ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، دار الفكر، بيروت، مجلد 4 ص 6.
- محمد فؤاد الذاكري، الطب والأطباء في القدس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2009، ص15-16.
- محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة الكويت 1985، المنظمة العربية للتربية والعلوم، ص 137.
- الموسوعة الفقهية (الكويتية)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت، 1997، ج 37، ص 234.
- ناهدة الكسواني ونجية الحمود، الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن عشر، كانون ثانٍ 2010، ص 5.
- هشام علي، المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، جامعة القادسية، 2017، ص 8-13.

المجلات والمواقع الإلكترونية

- أطباء وبيمارستان القدس في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة القدس للثقافة والتراث، https://tinyurl.com/y5amdrln
- عامر جاد الله أبو حسنة، الحركة العلمية في القدس من الفتح الإسلامي 15هـ حتى 132هـ، مجلة حوليات آداب عين شمس، ص 288.

- عبد الله حجازي، من مشاهير علماء الصيدلة المسلمين ابن الصوري، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yy8aou3t
- عماد عبد السلام رؤوف، علماء بيت المقدس في القرن الحادي عشر الهجري (17م)، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yxq43rsh
- مجلة ميم، 2017/9/12، https://tinyurl.com/yygegknf
- جاسر أبو صفية، علماء القدس وترقية الفكر الإنساني، مجلة عالم الفكر، العدد 4 المجلد 38، أبريل- يونيو 2010، ص 18.
- مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، 2007/7/12، https://tinyurl.com/y375aub3
- مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، 2014/1/29. https://tinyurl.com/yyulnkx6
- مؤسسة القدس للثقافة والتراث، من تاريخ الطب والصيدلة في المدينة المقدسة، http://tinyurl.com/y3ks4kwe
- الموسوعة الفلسطينية، شداد بن أوس (17 ق.هـ – 58هـ) (605 - 677م)، https://tinyurl.com/y2l9x7zw
- وائل معوض، ابن العربي: القاضي الفقيه والرحالة الأديب، موقع الألوكة، https://tinyurl.com/yxqoy6ze

الإدارة العامة
شارع الحمرا - بناية السارولا - الطابق 11
هاتف: 00961-1-751725
فاكس: 00961-1-751726
ص.ب: 113-5647 بيروت لبنان
info@alquds-online.org
www.alquds-online.org

